

قراءة في العلاقة العلاجية وتيسير النمو الشخصي عند

كارل روجرز - Carl R. Rogers, Ph.D.

قراءة وتلخيص: د. محمود صبحي سعيد

بعض الفرضيات المتعلقة بتيسير النمو الشخصي

Some Hypotheses Regarding the Facilitation of Personal Growth

فرضية عامة - A General Hypothesis

بعض الفرضيات المتعلقة بتيسير النمو الشخصي. في البداية، يستهل كارل روجرز بطرح سؤال جوهري: "كيف يمكنني علاج هذا الشخص، أو شفاؤه، أو تغييره؟".

غير أن روجرز يصف كيف بدأ هذا السؤال يتغير لديه تدريجيًا عبر خبرته المهنية، إذ يدرك أن هذا النوع من التساؤل يعكس توجهًا يقوم على محاولة "فعل شيء للآخر" أو "تغييره من الخارج". ومع مرور الوقت، يبدأ هذا الإطار في التراجع لصالح سؤال يبدو له أكثر عمقًا وصدقًا: كيف يمكنني أن أكون في علاقة مع هذا الشخص بحيث تصبح هذه العلاقة نفسها شيئًا يمكنه أن يستخدمه من أجل نموه؟

ويشير روجرز إلى أنه عندما بدأ يطرح السؤال بهذه الطريقة، بدأ يلاحظ أن ما يتعلمه من خلال العمل العلاجي لا يظل محصورًا داخل غرفة العلاج أو داخل إطار "المريض والمعالج"، بل يبدأ في الامتداد ليشمل جميع علاقاته الإنسانية الأخرى. ومن هنا، يتكوّن لديه إحساس متزايد بأن ما يكتشفه في سياق العلاج قد يكون له معنى أوسع بكثير مما كان يتصوره في البداية، وأنه قد يكون قابلاً للتطبيق في العلاقات الإنسانية عمومًا.

ومع هذا التحول، يصف روجرز ما يسميه "الدرس السلبي" الذي أصبح يتبلور لديه عبر التجربة. فهو يدرك تدريجيًا أنه لا يبدو قادرًا على مساعدة الشخص المضطرب من خلال وسائل فكرية أو تعليمية أو تدريبية مباشرة، رغم أنه كان قد جرب العديد من هذه الأساليب في وقت سابق. حتى عندما كان يحاول أن يشرح، أو

أن يوجه، أو أن يحدد خطوات واضحة للتغيير، كانت النتائج، في نظره، غالبًا ما تكون محدودة ومؤقتة، وسرعان ما تتلاشى، بل وقد تترك الفرد أكثر وعيًا بعجزه أو نقصه مما كان عليه من قبل.

ويصف روجرز كيف أن هذا الفشل المتكرر لمحاولات "التغيير عبر الفهم العقلي" أو "التوجيه من الخارج" قاده إلى إعادة النظر في طبيعة التغيير نفسه. ومع الوقت، يصل إلى إدراك تدريجي بأن التغيير العميق لا يبدو أنه يحدث من خلال المعرفة وحدها، بل من خلال الخبرة المباشرة داخل علاقة إنسانية تُعاش وتُختبر.

ومن خلال هذا الإدراك، تتبلور لديه فرضية أكثر شمولًا، يمكن صياغتها على النحو التالي: إذا استطعت أن أكون في علاقة تتسم بنوع معين من الجودة والكيفية، فإن الشخص الآخر سيجد في هذه العلاقة شيئًا يمكنه أن يستخدمه، شيئًا يساعده على أن يكتشف في ذاته قدرته على النمو، وعندها يحدث التغيير والتطور الشخصي بوصفه نتيجة داخلية لتلك الخبرة، وليس كأثر مفروض من الخارج.

العلاقة - The Relationship

يتوقف روجرز عند مفهوم "العلاقة" ليحاول تفكيك معناه كما يتجلى في خبرته، متسائلًا: ما طبيعة هذه العلاقة التي أجد نفسي أسعى إلى تقديمها؟ وما الذي يجعلها علاقة ذات قيمة في سياق التغيير النفسي؟

يصف روجرز أنه كلما أصبح أكثر صدقًا وشفافية داخل العلاقة، أصبحت هذه العلاقة أكثر فائدة وأعمق أثرًا. ويقصد بالصدق هنا أن يكون الفرد على وعي بما يعيشه من مشاعر في اللحظة الراهنة، وألا يكتفي بتمثيل موقف خارجي أو تبني قناع مهني يخفي وراءه مشاعر مختلفة أو متعارضة. فالأصالة بالنسبة له لا تعني فقط غياب التزييف، بل تعني استعدادًا حقيقيًا لعيش الخبرة الداخلية كما هي، وللتعبير عنها – قدر الإمكان – في الكلمات والسلوك.

ومن خلال هذا النوع من الحضور الصادق، تصبح العلاقة أكثر "واقعية"، ويبدو له أن مواجهة الواقع الداخلي للمعالج تمثل شرطًا أساسيًا لتمكين الشخص الآخر من الاقتراب من واقعه الداخلي أيضًا. فهو يرى أن الفرد لا يستطيع أن يكتشف ذاته إلا في وجود شخص آخر يجروء على أن يكون ذاته فعلًا، دون أقنعة أو تمثيل. وحتى في الحالات التي لا تكون فيها المشاعر إيجابية أو مريحة، أو عندما لا تتوافق مع ما يُفترض أنه "مناسب مهنيًا"، يظل الصدق في نظره عنصرًا حاسمًا في فاعلية العلاقة.

ثم ينتقل روجرز إلى شرط آخر يراه أساسيًا، وهو التقبّل. ويشير إلى أنه كلما ازداد تقبّله للشخص الآخر وإعجابه به ككائن إنساني مستقل، أصبحت العلاقة أكثر قدرة على إحداث النمو. ولا يقصد بالتقبّل هنا الموافقة على السلوك أو تأييده، بل يقصد به إدراك قيمة الشخص كإنسان له قيمة ذاتية غير مشروطة، مستقلة عن حالته الراهنة أو سلوكه أو مشاعره.

ويشمل هذا التقبّل أيضًا احترام استقلالية الفرد في خبرته الخاصة، والاستعداد لأن يعيش مشاعره بطريقته هو، حتى عندما تكون هذه المشاعر متناقضة أو متغيرة أو مختلفة عن توقعات الآخرين. ومع تراكم هذا النوع من التقبّل، تتحول العلاقة إلى مساحة آمنة ودافئة، يشعر فيها الفرد بأنه مقبول ومُعترف به، وهو ما يعتبره روجرز عنصرًا أساسيًا في أي علاقة مساعدة حقيقية.

كما يؤكد روجرز أن التقبّل وحده لا يكون كافيًا ما لم يُرافقه فهم عميق وتعاطفي. فهو يصف حاجة داخلية مستمرة لديه لفهم خبرة العميل كما تُعاش من داخله، لا كما تُفسّر من الخارج. فالفهم التعاطفي، في نظره، لا يعني تحليل المشاعر أو تصنيفها، بل يعني الاقتراب من التجربة كما هي، حتى تلك التي تبدو مروعة أو ضعيفة أو غريبة أو غير مفهومة.

ويشير إلى أنه فقط عندما يشعر الفرد بأن مشاعره تُفهم بهذه الطريقة، يصبح قادرًا على الانفتاح على خبرته الداخلية، واستكشاف جوانبها التي كانت مخفية أو مهددة أو غير واعية. وفي هذا السياق، تصبح العلاقة مساحة تتيح حرية حقيقية في استكشاف الذات، على المستويين الواعي وغير الواعي، وبالقدر الذي تسمح به قدرة الفرد على تحمل هذا الاقتراب من ذاته.

كما يضيف أن هذه الحرية لا تعني غياب الإطار أو غياب المسؤولية، بل تعني التحرر من التقييم الأخلاقي والتشخيصي المستمر، لأن هذه الأنماط من التقييم تُعد - في نظره - تهديدًا مباشرًا لعملية الاستكشاف الذاتي.

وبناءً على ذلك، يصف روجرز العلاقة التي يراها مفيدة بأنها علاقة تتسم بثلاثة أبعاد متداخلة: شفافية داخلية من جانب المعالج، حيث تكون مشاعره حاضرة وغير مخفية؛ وتقبّل عميق للشخص الآخر ككائن مستقل ذي قيمة ذاتية؛ وفهم تعاطفي يمكّن المعالج من رؤية العالم كما يعيشه العميل من داخله.

وعندما تتوفر هذه الشروط، تتحول العلاقة إلى ما يشبه "الرفقة الإنسانية" في رحلة استكشاف الذات، حيث يصبح المعالج رفيقًا للشخص الآخر في مواجهة خبرته الداخلية، بما تحمله من مخاوف وصراعات ومناطق غير معروفة.

ومع ذلك، يقرر روجرز بأن هذا النوع من العلاقة لا يتحقق دائمًا بسهولة. فهو ليس حالة دائمة أو تقنية يمكن تطبيقها بشكل آلي، بل هو نمط وجودي في العلاقة قد يتعذر تحقيقه في بعض المواقف أو مع بعض الأفراد. كما يلاحظ أن بعض الأشخاص قد يشعرون بالخوف من هذه الخبرة عندما تُعرض عليهم، حتى لو كانت متاحة في إطار آمن.

ومع ذلك، يخلص إلى أنه عندما يكون المعالج قادرًا على أن يكون في حالة من هذه المواقف الثلاثة، وعندما يتمكن الشخص الآخر من اختبارها ولو بدرجة جزئية، فإن التغيير والتطور الشخصي البناء يصبحان نتيجة مرجحة بشدة، بل ويكادان يكونان حتميتين في سياق هذه العلاقة.

الدافع إلى التغيير - The Motivation for Change

بعد أن تناول روجرز طبيعة العلاقة العلاجية بوصفها البيئة التي تُيسّر النمو النفسي، ينتقل إلى العنصر الثاني في فرضيته العامة، وهو الدافع الكامن لدى الفرد لاستخدام هذه العلاقة من أجل النمو والتطور. ويؤكد أن أهمية العلاقة العلاجية لا تكمن في قدرتها على إحداث التغيير من الخارج، وإنما في أنها تتيح للفرد اكتشاف قدراته الداخلية الكامنة وتفعيلها.

ويشير روجرز إلى أن هذا التصور لم يكن افتراضًا نظريًا سابقًا، بل كان نتيجة مباشرة لتجربته الإكلينيكية الممتدة. فمن خلال عمله مع العملاء، توصل تدريجيًا إلى قناعة مفادها أن الإنسان يمتلك في داخله قدرة فطرية، وإن كانت كامنة أحيانًا، تدفعه نحو النمو والنضج والتطور. وقد لا تكون هذه القدرة ظاهرة في جميع الأوقات، إلا أنها تظل موجودة في أعماق الشخصية، وتنتظر الظروف النفسية المناسبة التي تسمح لها بالظهور والتعبير عن نفسها.

ويرى روجرز أن هذه القدرة لا تُفرض على الفرد من الخارج، بل تنبع من طبيعته الإنسانية ذاتها. فعندما يعيش الفرد في مناخ نفسي يتسم بالأمان والتقبل والتعاطف، يبدأ هذا الميل الداخلي بالتحول من مجرد استعداد كامن إلى قوة فاعلة تؤثر في خبرته وسلوكه. وعندئذ يصبح الفرد أكثر قدرة على مواجهة الجوانب

المؤلمة في حياته، وأكثر استعدادًا للاعتراف بالخبرات التي كان يتجنبها أو ينكرها بسبب ما تثيره من تهديد أو قلق. كما تتسع دائرة وعيه بذاته، ويصبح أكثر قدرة على فهم مشاعره ودوافعه، الأمر الذي ينعكس في إعادة تنظيم شخصيته وعلاقته بنفسه وبالعالم من حوله بطريقة أكثر تكاملاً ونضجاً.

ويشير روجرز إلى أن هذا الميل الداخلي يمكن أن يُوصف بعدة تسميات، مثل نزعة النمو *Growth* *Tendency*، أو الدافع نحو تحقيق الذات *Actualizing Tendency*، أو النزعة التقدمية للكائن الحي. وعلى الرغم من اختلاف التسميات، فإنه يرى أنها جميعاً تشير إلى القوة الأساسية التي تحرك الحياة الإنسانية، والتي يعتمد عليها العلاج النفسي في جوهره. فالتغيير، في نظره، لا يصنعه المعالج، وإنما يستند إلى هذه القدرة الكامنة لدى الفرد، بينما يقتصر دور المعالج على تهيئة الظروف التي تسمح لها بالظهور.

ويمتد هذا التصور، في نظر روجرز، إلى جميع الكائنات الحية، إذ يرى أن كل كائن حي يمتلك ميلاً طبيعياً نحو التوسع والنمو والمحافظة على بقائه وتطوير إمكاناته. أما الإنسان، فإن هذا الميل يتجلى في رغبته المستمرة في تحقيق إمكاناته، وتطوير قدراته، واكتساب مزيد من الاستقلالية والنضج النفسي والاجتماعي. ومن ثم، فإن النمو ليس هدفاً يُفرض على الإنسان، بل هو اتجاه طبيعي ملازم للحياة نفسها.

ومع ذلك، لا يغفل روجرز أن هذه النزعة قد تتعرض للإعاقة أو التشويه بفعل الخبرات المؤلمة، أو أنماط التنشئة القائمة على القبول المشروط، أو تراكم الدفاعات النفسية التي يطورها الفرد لحماية ذاته من التهديد. وقد تصبح هذه النزعة مخفية خلف طبقات من الإنكار أو التشويه أو الدفاع، حتى يبدو وكأنها قد اختفت تماماً. إلا أن روجرز يؤكد أنها لا تزول، بل تبقى كامنة في أعماق الشخصية، وتظل قادرة على الظهور متى توافرت بيئة إنسانية تتسم بالأصالة، والتقبل غير المشروط، والفهم التعاطفي. ومن هنا، يخلص إلى أن مهمة العلاج النفسي لا تتمثل في خلق الدافع إلى التغيير، وإنما في تهيئة الظروف التي تسمح لهذا الدافع الطبيعي بأن ينشط ويقود الفرد نحو مزيد من التكامل والنمو وتحقيق الذات.

النتائج - The Outcomes

بعد أن عرض روجرز طبيعة العلاقة العلاجية، ويّين الدور الذي تؤديه النزعة الداخلية لدى الفرد نحو النمو، ينتقل إلى العنصر الثالث في فرضيته العامة، والمتمثل في النتائج التي يُتوقع أن تترتب على توافر هذه العلاقة.

ويرى روجرز أن العلاقة العلاجية، عندما تقوم على الأصالة، والتقبل غير المشروط، والفهم التعاطفي، لا تقتصر على توفير بيئة نفسية آمنة، بل تُحدث تغيرات فعلية وعميقة في بناء الشخصية وآليات عملها.

ويفترض روجرز أن الفرد، في ظل هذا النوع من العلاقات، يبدأ بإعادة تنظيم ذاته على المستوى الواعي، وكذلك على المستويات الأعمق من شخصيته. ولا يقتصر هذا التنظيم على تعديل بعض السلوكيات الظاهرة، وإنما يمتد ليشمل الطريقة التي يفهم بها الفرد نفسه، وكيفية إدراكه لخبراته، وطبيعة تفاعله مع الآخرين ومع الحياة بصورة عامة. ونتيجة لذلك، يصبح أكثر قدرة على التعامل مع المواقف الحياتية بمرونة وفاعلية، وأكثر قدرة على اتخاذ قرارات تتسم بالنضج والمسؤولية، مما ينعكس إيجابًا على توافقه النفسي والاجتماعي.

ويؤكد روجرز أن هذا التصور لم يعد قائمًا على الملاحظة الإكلينيكية وحدها، بل أصبح مدعومًا بنتائج البحوث العلمية التي أجريت في مجال العلاج المتمركز حول العميل. فاستنادًا إلى تلك الدراسات، يشير إلى أن الأفراد الذين يعيشون في علاقة علاجية تتوافر فيها الشروط الأساسية، حتى وإن كانت لفترة زمنية محدودة نسبيًا، يُظهرون تغيرات جوهرية في الشخصية والاتجاهات وأنماط السلوك، وهي تغيرات لا تظهر لدى الأفراد في المجموعات الضابطة التي لا تتوافر لها الظروف العلاجية نفسها. (Rogers, 1961)

ويرى روجرز أن هذه التغيرات تتجلى أولاً في زيادة التكامل النفسي، حيث يصبح الفرد أكثر انسجامًا بين خبراته الداخلية وسلوكه الظاهر، وأكثر قدرة على توظيف إمكانياته بصورة فعالة. كما يلاحظ انخفاضًا في الخصائص التي ترتبط عادة بالاضطرابات العصبية أو الذهانية، مقابل ازدياد السمات التي تميز الشخصية السوية، مثل الاتزان الانفعالي، والمرونة، والقدرة على التكيف، والكفاءة في مواجهة متطلبات الحياة اليومية.

كما يوضح روجرز أن صورة الفرد عن ذاته تخضع لتغيرات جوهرية خلال هذه العملية. فالفرد يصبح أكثر واقعية في إدراكه لنفسه، ويقترّب تدريجيًا من الصورة التي يتمنى أن يكون عليها، مع ازدياد شعوره بقيمته الذاتية وثقته بنفسه. ويؤدي ذلك إلى تعزيز قدرته على توجيه حياته بصورة مستقلة، وإلى تنامي وعيه بذاته، بحيث يصبح أكثر انفتاحًا على خبراته الداخلية، وأقل ميلًا إلى إنكارها أو تشويهها أو كبتها دفاعًا عن ذاته.

ولا يقتصر أثر هذه التغيرات على علاقة الفرد بنفسه، بل يمتد ليشمل علاقاته بالآخرين أيضًا. إذ يلاحظ روجرز أن الفرد يصبح أكثر تقبلًا للآخرين، وأكثر قدرة على بناء علاقات إنسانية قائمة على الفهم والاحترام

المتبادل، كما يشعر بدرجة أكبر من القرب والانتماء إلى الآخرين، وتنخفض لديه النزعة إلى إصدار الأحكام أو اتخاذ المواقف الدفاعية.

أما على المستوى السلوكي، فيشير روجرز إلى أن هذه التحولات الداخلية تنعكس في صورة سلوك أكثر نضجًا واتزانًا. فالفرد يصبح أقل تأثرًا بالضغوط النفسية، وأكثر قدرة على التعافي من الإحباطات والانفعالات السلبية، كما يكتسب مرونة أكبر في التعامل مع المشكلات والمواقف الجديدة، ويصبح أكثر استعدادًا لاستخدام التفكير الإبداعي في مواجهة التحديات اليومية. ويضيف أن هذه التغيرات لا يلاحظها الفرد وحده، بل تصبح واضحة أيضًا لمن يتعاملون معه من أفراد أسرته وأصدقائه وزملائه.

وفي ضوء هذه النتائج، يخلص روجرز إلى أن العلاقة العلاجية ليست مجرد إطار يوفر الدعم الانفعالي، وإنما تمثل عاملًا جوهريًا في إعادة تنظيم الشخصية وتعزيز النمو النفسي. كما يؤكد أن ما توصل إليه لم يعد مجرد افتراض نظري، وإنما أصبح يستند إلى قاعدة متنامية من الأدلة البحثية التي تدعم فعالية العلاج المتمركز حول العميل في إحداث تغيرات بنائية في الشخصية. ومع ذلك، يشير إلى أن هذا المجال لا يزال بحاجة إلى مزيد من الدراسات التي تُعمّق فهم آليات هذا التغير وتوضح أبعاده المختلفة، إلا أن الأدلة المتوافرة تكفي - في نظره - للتأكيد على أن العلاقة العلاجية تمثل عنصرًا أساسيًا في إحداث النمو والتغير البناء في الشخصية.

فرضية عامة للعلاقات الإنسانية A General Hypothesis for Human Relationships

يرى روجرز أن الأهمية الحقيقية للنتائج التي توصل إليها لا تكمن فقط في كونها تؤكد فعالية أحد أساليب العلاج النفسي، على الرغم من أن ذلك يُعد إنجازًا علميًا مهمًا، وإنما في أنها تفتح المجال أمام صياغة فرضية أكثر شمولًا تتعلق بطبيعة العلاقات الإنسانية بصورة عامة. فمن وجهة نظره، لا تمثل العلاقة العلاجية حالة استثنائية، بل تُعد نموذجًا خاصًا للعلاقات الإنسانية، ومن ثم فإن المبادئ التي تفسر فاعليتها قد تكون هي نفسها المبادئ التي تحكم جميع أشكال التفاعل الإنساني.

وانطلاقًا من هذا التصور، يفترض روجرز أن الشروط النفسية التي أثبتت قدرتها على تعزيز النمو داخل العلاقة العلاجية يمكن أن تُحدث الأثر ذاته في مختلف السياقات الإنسانية، متى توافرت بالقدر الكافي. فالعامل الحاسم، في نظره، ليس طبيعة الدور الذي يؤديه الشخص، سواء كان معالجًا أو والدًا أو معلمًا أو قائدًا، وإنما نوعية المناخ النفسي الذي يخلقه في علاقته بالآخرين.

وفي هذا السياق، يذهب روجرز إلى أنه إذا استطاع الوالدان توفير علاقة تقوم على الأصالة، والتقبل غير المشروط، والفهم التعاطفي، فإن الطفل سيكون أكثر قدرة على تنمية استقلاليتته، وأكثر ثقة في ذاته، وأكثر اندماجًا في محيطه الاجتماعي، كما سيُظهر مستوى أعلى من النضج الانفعالي والاجتماعي. ويرى أن هذه البيئة لا تشجع الطفل على الاعتماد على ذاته فحسب، بل تساعد أيضًا على تطوير مفهوم إيجابي عن نفسه، وعلى مواجهة خبراته بثقة ومرونة.

ويمد روجرز هذا التصور إلى المجال التربوي، حيث يرى أن المعلم الذي ينجح في بناء علاقة إنسانية داعمة مع طلابه، قائمة على الاحترام والتقبل والتفهم، يسهم في تنمية الدافعية الداخلية للتعلم لديهم. وفي مثل هذا المناخ، يصبح الطالب أكثر مبادرة واستقلالية، وأكثر أصالة في تفكيره، كما تنمو لديه القدرة على التعلم الذاتي والانضباط الداخلي، بدلاً من الاعتماد المفرط على التوجيه الخارجي أو البحث المستمر عن رضا الآخرين.

ولا يقتصر تطبيق هذه المبادئ على الأسرة أو المدرسة، بل يعتقد روجرز أنها تمتد كذلك إلى المؤسسات والتنظيمات المختلفة. فهو يفترض أن المدير أو القائد، سواء في المجال الصناعي أو الإداري أو العسكري، إذا نجح في إيجاد مناخ تنظيمي يتسم بالثقة والاحترام والتقبل، فإن العاملين معه سيصبحون أكثر تحملاً للمسؤولية، وأكثر استعداداً للمبادرة والإبداع، وأكثر قدرة على التكيف مع التغيرات والتحديات المستجدة، كما سيزداد مستوى التعاون بينهم بصورة طبيعية، دون الحاجة إلى الاعتماد المفرط على الضبط الخارجي أو الرقابة المستمرة.

ومن خلال هذه الرؤية، يخلص روجرز إلى أن النتائج التي توصل إليها تتجاوز حدود العلاج النفسي لتؤسس لفهم جديد للعلاقات الإنسانية، يقوم على أن توفير شروط نفسية محددة داخل أي علاقة من شأنه أن يؤدي إلى نتائج تنموية متوقعة. ولذلك، يرى أن هذا التوجه قد يمثل بداية ظهور مجال علمي جديد يُعنى بدراسة العلاقات الإنسانية من منظور قائم على الشروط التي تعزز النمو الشخصي، بحيث يصبح بالإمكان التنبؤ بأن توافر ظروف معينة داخل العلاقة سيقود إلى أنماط محددة من التغيير والنمو لدى الأفراد.

تحليل ومناقشة

يعكس هذا الطرح اتساعًا ملحوظًا في الإطار النظري الذي يقدمه روجرز، إذ لم يعد ينظر إلى العلاج المتمركز حول العميل بوصفه أسلوبًا علاجيًا يقتصر على الممارسة الإكلينيكية، وإنما باعتباره نموذجًا عامًا لفهم العلاقات الإنسانية وآليات النمو النفسي. ويشير هذا التحول إلى أن روجرز ينقل مركز الاهتمام من التقنيات العلاجية إلى نوعية العلاقة الإنسانية بوصفها العامل الأكثر تأثيرًا في إحداث التغيير، وهو ما يُعد من أبرز إسهامات المدرسة الإنسانية في علم النفس.

وتستند هذه الرؤية إلى افتراض أساسي مفاده أن الإنسان يمتلك نزعة فطرية نحو النمو وتحقيق الذات، وأن هذه النزعة لا تحتاج إلى فرض خارجي بقدر ما تحتاج إلى بيئة نفسية داعمة تسمح لها بالظهور والتطور. ومن هذا المنطلق، تصبح العلاقة القائمة على الأصالة، والتقبل غير المشروط، والفهم التعاطفي بيئة محفزة للنمو، سواء أكانت علاقة علاجية أم تربوية أم أسرية أم تنظيمية.

وقد لاقَت هذه الفرضية دعمًا متزايدًا في الأدبيات العلمية اللاحقة، إذ أشارت العديد من الدراسات إلى أن جودة العلاقة بين الأفراد تُعد من أهم العوامل المؤثرة في التعلم، والدافعية، والصحة النفسية، والتوافق الاجتماعي. ففي المجال العلاجي، توصلت بحوث متعددة إلى أن جودة التحالف العلاجي Therapeutic Alliance تُعد من أقوى المتغيرات المتنبئة بنتائج العلاج، بغض النظر عن المدرسة العلاجية المستخدمة (Norcross & Lambert, 2019) كما أظهرت الدراسات التربوية أن المناخ الصفّي القائم على الاحترام والتقبل يعزز الدافعية الداخلية، والاستقلالية، والتعلم العميق لدى الطلبة، وهو ما يتوافق مع التصور الذي طرحه روجرز منذ ستينيات القرن الماضي (Cornelius-White, 2007).

وفي المجال التنظيمي، وجدت بحوث القيادة أن البيئات المهنية التي تتسم بالثقة، والاحترام المتبادل، والمشاركة في اتخاذ القرار، تسهم في رفع مستوى الإبداع، والالتزام الوظيفي، والرضا المهني، وتعزز قدرة العاملين على التكيف مع التغيرات التنظيمية، وهو ما يعكس بصورة واضحة امتداد تطبيقات نظرية روجرز إلى مجالات تتجاوز العلاج النفسي (Cain, 2010).

وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة لهذا الطرح، فقد أشار بعض الباحثين إلى أن تعميم مبادئ العلاقة العلاجية على جميع العلاقات الإنسانية قد يواجه بعض التحديات، نظرًا لاختلاف طبيعة الأدوار الاجتماعية، وتباين

السياقات الثقافية والتنظيمية التي تُبنى فيها العلاقات. ومع ذلك، فإن معظم الأدبيات المعاصرة تتفق على أن المبادئ الأساسية التي أكد عليها روجرز، ولا سيما الأصالة، والتقبل غير المشروط، والتعاطف، ما تزال تمثل مرتكزات أساسية في بناء العلاقات المهنية والإنسانية الفعالة، وأن أثرها الإيجابي قد ثبت في ميادين متعددة تتجاوز حدود العلاج النفسي.

ومن ثم، يمكن النظر إلى هذا الطرح بوصفه أحد أهم الإسهامات النظرية لكارل روجرز، لأنه وسّع نطاق تطبيق النظرية الإنسانية من إطارها العلاجي الضيق إلى إطار أشمل يفسر كيفية بناء العلاقات الإنسانية الداعمة للنمو في مختلف مجالات الحياة، وهو ما جعل أفكاره ذات تأثير مستمر في علم النفس، والتربية، والإرشاد، والقيادة، والتنمية التنظيمية.

خلاصة الفرضية العامة عند روجرز

يختتم روجرز هذا الجزء من نظريته بإعادة صياغة فرضيته العامة في صورة متكاملة، مؤكدًا أن التغيير النفسي لا يعتمد على الأساليب العلاجية أو التقنيات الإرشادية بقدر ما يعتمد على طبيعة العلاقة الإنسانية التي تجمع المعالج بالفرد. ويرى أن العلاقة التي تتسم بالأصالة أو الشفافية، والتقبل غير المشروط، والفهم التعاطفي، تهيئ الظروف النفسية التي تسمح للفرد باستكشاف خبراته الداخلية بحرية، والتصالح مع ذاته، وإعادة تنظيم شخصيته بصورة أكثر تكاملًا.

ويؤكد روجرز أن الفرد، في ظل هذه العلاقة، يصبح أكثر وعيًا بذاته، وأكثر قدرة على فهم خبراته ومشاعره، وأقل ميلًا إلى الإنكار أو التشويه الدفاعي. كما يزداد تقديره لذاته، وتتطور ثقته بقدرته على اتخاذ القرارات وتوجيه حياته بصورة مستقلة، الأمر الذي ينعكس في سلوك أكثر نضجًا ومرونة، وفي علاقات إنسانية أكثر إيجابية وتوازنًا.

ولا يقتصر تطبيق هذه المبادئ، في نظر روجرز، على العلاج النفسي، بل يمتد إلى مختلف العلاقات الإنسانية، سواء في الأسرة أو المدرسة أو بيئة العمل أو المؤسسات الاجتماعية. ومن ثم، يخلص إلى أن توفير مناخ نفسي يقوم على الصدق، والتقبل، والتعاطف يمكن أن يساهم في تنمية أفراد أكثر استقلالية، وإبداعًا، وتوافقًا مع أنفسهم ومع الآخرين. ورغم أن الأدلة البحثية المتوافرة تدعم هذه الفرضية بدرجة كبيرة، فإنه

يؤكد في الوقت نفسه أهمية استمرار البحث العلمي لفهم آليات هذا التغيير وتعميق المعرفة بالعوامل التي تسهم في تحقيقه.

المراجع - References

- Rogers, C. R. (1961). *On becoming a person: A therapist's view of psychotherapy*. Houghton Mifflin.
- Rogers, C. R. (1957). The necessary and sufficient conditions of therapeutic personality change. *Journal of Consulting Psychology*, 21(2), 95–103.
- Cain, D. J. (2010). *Person-centered psychotherapies*. American Psychological Association.
- Elliott, R., Bohart, A. C., Watson, J. C., & Greenberg, L. S. (2011). Empathy. *Psychotherapy*, 48(1), 43–49.
- Kirschenbaum, H., & Jourdan, A. (2005). The current status of Carl Rogers and the person-centered approach. *Psychotherapy: Theory, Research, Practice, Training*, 42(1), 37–51.
- Norcross, J. C., & Lambert, M. J. (2018). Psychotherapy relationships that work III. *Psychotherapy*, 55(4), 303–315.